﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾ [يونس: 67]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين عظَمةِ الله وسَعةِ علْمِه، وبين أفعالِه الدَّالّةِ على آياته

لَمَّا نَصَّ النَّظمُ الكريمُ على عظَمة الله تعالى في الآية المتقدِّمة عقَّب ذلك في هذه بالتَّنبيه على أفعاله لِتُبَيِّنَ العظمةَ المحكومَ بها قَبْلُ[1]، فهذه الآيةُ استدلالٌ على مضمون ما قبْلها، مِن نفي وجودِ شركاءَ له في الخلقِ والتَّقديرِ، ولا الشّفاعَة عنده في التَّصرّف والتَّدبير؛ فهو الذي جعل لكم الوقتَ قسمين، بمقتضى علْمِه ومشيئتِه بدون مساعدٍ ولا شفيعٍ، بل بمحضِ الحِكمة البالغةِ، والرَّحمةِ الشَّاملة؛ أحدُهما: اللّيلُ، جعله مظلمًا لأجل أن تسكنوا فيه بعدَ طولِ الحركةِ والتَّقلُّبِ في الأرض، تستريحون مِنَ التَّعب في طلبِ الرّزقِ، والآخَرُ: النَّهارُ، جعلَه مُضيئًا ذا إبصارٍ لتنتشروا في الأرض، وتقوموا بجميع أعمالِ العمرانِ والكسبِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَعَلَ﴾: بمعنى صنعَ، إلا أنَّ جَعَلَ أعمُّ، يقال: جعلَ يفعلُ كذا، ولا يقال: صنع يفعلُ كذا[3]، و﴿جَعَلَ﴾ لفظٌ عامٌّ في الأفعال كُلِّها، وهو أعمُّ مِن فَعَلَ وصَنَعَ، وسائرِ أخواتها. يأتي لمعانٍ: جَعَلَ الشَّيءَ جَعلاً: وَضَعَهُ، جَعَلَ بَعْضَه فوقَ بعضٍ: ألقاهُ. جَعَلَ القَبيحَ حَسَنًا: صيَّرهُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [الأعراف: 27]، أي: صيّرْناهمْ، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ٣٠﴾ [مريم: 30]، أي:

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/130.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/371.
(3) الحميريّ، شمس العلوم: (جعل).

صَيَّرني. جَعَلَ البَصرة بغدادَ: ظنَّها إيَّاها. جَعَلَ له كذا على كذا: شارَطَهُ به عليه، ومنه الجَعالَةُ[1].

2) ﴿لِتَسْكُنُواْ﴾: أصْلٌ مفردة (سكن) يَدُلُّ على خِلَافِ الاضْطِرابِ والحركة[2]، والسَّكَنُ: الأهلُ الَّذين يَسكنونَ الدَّارَ[3]، والسَّكينةُ: الطُّمأنينة والاستقرارُ والرَّزانة والوقارُ[4]، قال ابن القيِّم: "هي الطُّمأنِينة والوقارُ والسُّكونُ، الَّذي يُنزِله اللّه في قلب عبدِهِ عندَ اضطرابه مِن شدَّة المخاوف، فلا ينزعجُ بعد ذلك لِمَا يردُ عليه، ويُوجبُ له زيادةَ الإيمان، وقوَّةَ اليقين والثَّبات"[5]، وقال الجُرجاني: السَّكِينَة: "ما يجدُه القلبُ مِنَ الطُّمَأنِينة عند تنزُّل الغيب، وهي نورٌ في القلب يَسْكُنُ إلى شاهده ويطمئنُّ"[6]، والمقصودُ في الآية: زوالُ اضطراب عناء النَّهار بالرُّكون للرَّاحة والطُّمأنينة.

3) ﴿مُبْصِرًاۚ﴾: أصلُ مفردة (البصر): وضوحُ الشَّيءِ، وبَصُرَ الطَّريقُ أي: اسْتَبانَ وَوَضُحَ، وَالبَصيرَةُ: البُرهانُ[7]، ويُطلَقُ البَصرُ على حاسَّةِ العَينِ، والجَمعُ: أبْصارٌ[8]، والإبصار: الرُّؤيةُ والنَّظرُ بالعين[9]، والبَصيرُ والمُبصِرُ: النّاظِرُ لِغَيْرِه، وضدُّهُ الأعْمَى. ويأتي البَصرُ أيضًا بِمَعْنَى: العِلم والإدراك، وهي الرُّؤيةُ بالقلب، كقولك: بَصُرْتُ بِالشَّيءِ إذَا عَلِمْتَهُ وَأدْرَكْتَهُ، والبَصيرَةُ: قُوَّةُ الإدراكِ والفِطْنَةُ والعِلْمُ، والجَمعُ: بَصائِرُ[10]، والمُرادُ بـ ﴿مُبْصِرًاۚ﴾ في الآيةِ: مُضيئًا يُوضِّحُ الأشياءَ ويُجلّيها؛ لأنَّ الإبصار ينشأُ عنه التَّصرّفُ بالمصالحِ، والإظلامُ ينشأُ عنه السُّكونُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخاطبُ اللّه تعالى النَّاسَ مُبيِّنًا بعضَ مظاهرِ نِعمِه عليهم، وآثارِ رحمتِه في عِباده،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(2) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عمدة الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (جعل)، والسُّيوطيّ، الإتقان: 2/225.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(4) مجمع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: 1/440.
(5) ابن قيّم الجوزيّة، مدارج السَّالكين: 2/503.
(6) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 159.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بصر).
(8) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(9) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 247.
(10) ابن منظور، لسان العرب: (بصر)، وإبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: 1/59.

وليس لِما يعبدُ المشركون مِن آلهةٍ - صوَّرتْها لهم الظُّنونُ والأوهام - شيءٌ مِن هذا الذي خلَقَه الله، وما أفاض به على عباده من نِعم. فهو سُبحانه الذي جعل اللَّيل سَكنًا، يُؤْوِي الكائناتِ الحيَّةَ، ويهيئ لها فرصةً للرَّاحة مِن سعْيِها في النَّهار، حتَّى تُجدِّدَ نشاطَها، وتستعيدَ قوَّتَها، لتستقبل السَّعيَ والعملَ في يومٍ جديدٍ، بنشاطٍ مُتجدِّدٍ[1].

فـائـدةُ جـعْـلِـه اللَّـيـلَ والنَّـهـارَ للسَّكن والحركةِ بالعشيِّ والإبكارِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ:

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ استدلالٌ على المضمون قَبْلَها، مِن نفي وجود شُركاءَ له في الخلق والتَّقدير، ولا في الشَّفاعة عنده في التَّصرّف والتَّدبير، أي: هو الذي جعلَ لكمُ الوقتَ قسمين بمقتضى عِلْمِه ومشيئتِه بدون مُساعدٍ ولا شفيعٍ، بل بمحْضِ الحكمةِ البالغةِ والرَّحمةِ الشَّاملة[2]، فهو استئنافٌ لتقريرِ ما سلف مِن كونِ جميعِ المَوجودات المُمكنةِ تحت قُدرته ومُلكِه المُفصِحِ عنِ اختصاصِ العزَّة به سُبحانه[3]، والجُملةُ الكريمةُ بيانٌ لمظاهرِ رحمة الله تعالى بعباده، بعدَ بيان سَعةِ علمِه، ونفاذِ قدرته، وشمولِها لكلِّ شيءٍ في هذا الكون[4]، ولأجل هذا تُرك العطفُ.

تقريرٌ بأنَّ جميعَ المـوجـوداتِ المُـمـكـنـةِ تحت قُـــدْرَةِ الـلـه وهيمنَتِه

دَلالةُ الافتتاحِ بالضَّميرِ ﴿هُوَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾، افتُتحتِ الجملةُ بالضَّميرِ المنفصلِ ﴿هُوَ﴾، أي: هو وحدَه[5]، وفيه تنبيهٌ على

التَّـنـبـيـهُ على عـظـيـمِ قُـــدرةِ الـلـه، وشُـمـولِ نعمتِه لعبادِه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/227، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/282، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/228، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1046.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/454.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/145.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/100.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/158.

تفرُّده تعالى بالقُدرةِ الكاملةِ والنِّعمةِ الشَّاملةِ؛ لِيَدُلَّهم على توحُّده سبحانه باستحقاق العبادةِ[1].

دَلالةُ القصْرِ الحقيقيّ:

الاستدلالُ على انفرادِه تعالى بخصائصِ الإلهيَّة

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ طريقٌ مِن طُرقِ القصْرِ، وهو تعريفُ المُسندِ والمسنَدِ إليه؛ وهو هُنا قَصْرٌ حقيقيٌّ وليس إضافيًّا كما توهَّمَه بعضُ الكاتبين؛ إذ جعلَه قصْرَ تعيينٍ[2]، وهم معترفون به لا يستطيعون دفعَ هذا الاستدلالِ، فالمقصودُ الاستدلالُ على انفراده تعالى بخصائص الإلهيَّةِ الّتي منها الخَلقُ والتَّقديرُ، وأنّ آلهتهم انتفت عنها خصائصُ الإلهيَّة، وقد حصَلَ مع الاستدلالِ امتنانٌ على النَّاس بجعْلِ اللَّيل والنَّهار على هذا النِّظامِ[3].

دَلالةُ الاحتباكِ:

الاكتفاءُ بالمذكورِ عن المتروكِ، من بلاغةِ السِّياقِ

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، في هذه الآية احتباكٌ؛ حيث حَذَفَ مِن كلٍّ نظيرِ ما أثبتَه في الآخر، فَحَذَف مِن الأوَّل وصفَ اللَّيل بالإظلام، وذكر حكمتَه، وحذَف مِنَ الثَّاني الحكمةَ وذكر وصْفَه[4]، والتَّقديرُ: جعل اللَّيلَ مُظلمًا لتسكنوا فيه، والنَّهارَ مُبصرًا لتتحرّكوا لمصالحِكم، فحذَف مِن كلٍّ مِن الجانبين ما ذكرَ في الآخر، اكتفاءً بالمذكورِ عن المتروكِ[5]؛ وذلك أنَّه ذَكَرَ عِلَّةَ جعْلِ اللَّيل لباسًا، وهي قوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾ وحذفَها مِن جعلِ النَّهار، وذكرَ صفةَ النَّهار، وهي قوله: ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ وحذفَها مِن ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ لدلالة المقابلِ عليه، وهذا أفصحُ كلامٍ[6]، ونُلاحظ أنَّ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/118، والآلوسي، روح المعاني: 6/145.
(2) ذهب الى هذا الشّهاب الخفاجيّ وتبعه في ذلك الآلوسي، يُنظر: الشّهاب الخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/80، والآلوسي، روح المعاني: 6/145.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 11/227.
(4) أحمد الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/110.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/84، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/47.
(6) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/51.

في هذه الألفاظ إيجازًا وإحالةً إلى ذهن السَّامع؛ لأنَّ العبرةَ في أنَّ اللَّيل مظلمٌ أنّه يُسكن فيه، والنَّهار مُبصرٌ، يُتصرَّف فيه، فذكرَ طرفًا مِن هذا، وطرفًا من الجهة الثَّانية[1].

بلاغةُ المجازِ العقلِّي:

المُبالغةُ في حصولِ الإبصارِ في النَّهار، مُعجزةُ الخالقِ القهَّارِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾: ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾: اسمُ فاعل من الفعل أبْصَرَ بمعنى رأى، ووَصْفُ النَّهار بأنَّه مبصر مِن قبيل المجاز العقليِّ؛ لأنَّ نور النَّهار سببُ الإبصارِ، فأضافَ الإبصارَ إليه؛ لأنّ السّامعَ قد فهمَ المقصود؛ إذِ النَّهار لا يُبْصِرُ، وإنَّما هو ظرفٌ يُفْعَلُ فيه غيرُه[2]، فَوَصْفُ النَّهار بلفظ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ مجازٌ عقليٌّ، للمُبالغة في حصولِ الإبصار فيه، حتَّى جعل النَّهارَ هو المُبصر[3].

سرُّ استعمالِ الفعْلِ مع اللَّيلِ، والاسمِ مع النَّهارِ:

التَّفرقةُ بين الظَّرفِ المجرورِ، والظَّرفِ الذي هو سببٌ

قوله تعالى: ﴿ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ مع اللَّيل ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾، والاسمَ مع النَّهار ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾، ولم يُسوِّ بينهما، فلم يقل: ساكنًا ومُبصرًا، ولا لتسكنوا فيه، ولتبصروا فيه، مع أنَّ الاستعمالَ الحقيقيَّ هو: (لتُبْصِرُوا فيه)، وذلك أنَّه جمعَ الحقيقةَ والمجازَ في تعبيرٍ واحدٍ، ولو جعلَهما بصورة تعبيريَّةٍ واحدةٍ، لفاتت هذه المزيَّةُ الفنيَّةُ، فإنَّه ذكرَ نعمةَ اللّه علينا في اللَّيل، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾، ولو قال: "هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ سَاكِناً"، لم يكنْ فيه دلالةُ نعمةٍ على الخلْق مِن ناحيةٍ، ولكانت ﴿لَكُمُ﴾ هنا زائدةً ليس لها فائدةٌ، فجيءَ بـ ﴿لَكُمُ﴾ وبالصِّيغة الفعليَّةِ للدَّلالةِ على قصْدِ النِّعمة والتَّفَضُّلِ علينا، ولَمَّا تقرَّرت دلالةُ النِّعمة في صدرِ الآية[4]، كان

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 3/256.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/340.
(3) الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 11/215.
(4) محمَّد بن يوسف أطفيش، تيسير التَّفسير: 6/277.

العُدولُ إلى التَّعبيرِ المجازيِّ بعد ذلك، فعدلَ مِنَ الفعلِ إلى الاسم، ومِنَ الحقيقةِ إلى المجازِ العقليِّ، فقال: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾، وذلك أنَّ النَّهارَ لا يُبصرُ، بل يُبصرُ مَن فيه، والعدولُ عن (لتُبْصِرُوا فِيهِ) الذي يَقتضيه ما قبلُ إلى ما في النَّظم الجليل، للتَّفرقة بين الظَّرف المجرور والظَّرف الذي هو سببٌ يتوقَّف عليه في الجملة[1]، فلم يقل لتُبصروا فيه، ليُوافقَ ما قبْله تفرقةً بين الظَّرفين؛ إذِ الظَّرفُ الأوَّل ليس سببًا للسُّكون والدَّعة، بخلاف الثَّاني فإنَّه ظرفٌ للإبصار، وسببٌ له أيضًا، فجمعَ بين التَّعبيرِ الحقيقيِّ والمجازيِّ، ودلَّ على المقصدِ الأوَّل مِنَ الآية، وهو الدَّلالةُ على النِّعمة، بأقربِ طريق، فأكْسبَ المعنى جمالًا ودقَّة وروعةً[2].

دَلالةُ الاستعارةِ في ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾:

المُبالغةُ في تصويرِ حُصولِ الإبصارِ والوضوحِ في النَّهار آيةُ الله في الخلْقِ

في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾: يجوزُ أن يجريَ ﴿مُبۡصِرًا﴾ على أنَّه استعارةٌ مكنيَّةٌ، إذا قصدَ التَّشبيهَ حيث شبَّه النَّظمُ الكريمُ النَّهارَ بالإنسان، وذكرَ صفةً مِن صفاتِه وهي الإبصارُ؛ لأنَّ النَّاسَ يُبصرون فيه، فكأنَّ ذلك صفةُ الشَّيء، بما هو سببٌ له، أي للإبصار على طريق المُبالغة[3]، كقولهم: نهارُه صائمٌ، وليلُه قائمٌ[4].

سرُّ وَصْفِ النَّهار بوصْفِ العُقلاء:

كونُ آيةِ النَّهارِ مكشوفةَ القِناعِ بيِّنةَ الإبصار

قولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾: مِن لطائفِ المُناسبة أنَّ النُّورَ الذي هو كيفيَّةُ زمن النَّهار، شيءٌ وجوديٌّ، فكان زمانُه حقيقًا، بأن يُوصفَ بأوصافِ العُقلاء، بخلاف اللَّيل، فإنَّ ظُلمتَه عدميَّةٌ، فاقتصرَ في العبرةِ به على ذكرِ الفائدةِ الحاصلةِ فيه، وهي أن يسكنوا فيه[5]؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/145.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 17/88، والشِّهاب الخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/80.
(3) محيي الدِّين درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/273.
(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/51.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/227.

فجعل الله تعالى آيةَ النَّهارِ مكشوفةَ القناعِ، بيِّنةَ الإبصار، على خلاف آيةِ اللَّيل، إذ جُعِلَتْ مُشرجةَ الغلافِ، بهيمة الأطرافِ[1]. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ضوءَ النَّهار، هو الذي يُعطي العيونَ قُدرتَها على الإبصارِ، ولولا هذا الضَّوءُ لما كانت العُيونُ مُبصرةً، فهو إذنِ المُبصر لا العيونُ، لأنَّه هو سببٌ أوَّلٌ، وهي سببٌ ثانٍ، فكان أولى بالذِّكر منها في هذا المقام[2].

دَلالةُ التَّعليلِ في: ﴿لِتَسْكُنُواْ﴾:

إيضاحُ مُقتضَى الحكمةِ ودلائلِ الرَّحمةِ لا حصرُها في السُّكون

قد يُقال: إنَّ قولَه تعالى: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى ما خلَقَ اللَّيلَ إلَّا لهذا الوجهِ، وقولَه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، يدلُّ على أنَّه تعالى أراد بخَلْقِ اللَّيلِ والنَّهارِ أنواعًا كثيرةً مِنَ الدَّلائلِ، فالجوابُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿لِتَسْكُنُواْ﴾ لا يدلُّ على أنّ الحكمةَ هنا مجرّد السّكون فحسْب، بل ذلك يقتضي حصولَ تلك الحكمةِ[3].

سِرُّ الامتنانِ بـ (اللَّيل والنَّهار):

التَّعريضُ في الاستدلالِ بالامتنانِ، بجمْعِهم بين المخالفةِ والكُفرانِ

وهذا الامتنانُ مُستفادٌ مِن قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾، ومِن تعليل خلْق اللَّيل بعلَّة سكونِ النَّاسِ فيه، وخلْقِ النَّهار بعلَّةِ إبصارِ النَّاس، وكلُّ النَّاسِ يعلمون ما في سكونِ اللَّيلِ مِن نعمةٍ، وما في إبصارِهم بالنَّهار مِن نعمةٍ كذلك، فإنَّ في العمل بالنَّهار نِعَمًا جمَّةً، مِن تحصيلِ رغبات، ومشاهدةِ محبوباتٍ، وتحصيلِ أموال وأقواتٍ، وأنَّ في السُّكون باللَّيل نعمًا جمَّةً أيضًا، مِن استجمامِ القُوى المُنْهَكَة، والإخلادِ إلى مُحادثةِ الأهل والأولاد، على أنَّ في اختلاف الأحوالِ، ما يدفعُ عنِ المرءِ الملالَ[4].

وفي إدماجِ الاستدلالِ بالامتنان تعريضٌ بأنَّ الذين جعلوا

(1) الشَّريف الرَّضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 199.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1045.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/28.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/227.

للّه شركاءَ جمعوا وصْمَتين هما: وصْمةُ مخالفةِ الحقِّ، ووصْمةُ كُفران النِّعمةِ[1].

دَلالةُ الاستئنافِ:

من سمِعَ بيقينٍ، اهتدَى إلى الحقّ المبينِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، جملةٌ مُستأنفةٌ؛ لتقريرِ أنَّ الآياتِ دالَّةٌ على وَحدانيَّة اللّه تعالى بالإلهيَّة، وأنَّ النِّظامَ الذي نشأ عنه اللَّيلُ والنَّهارُ مشتملٌ على دقائقَ كثيرةٍ مِنَ العلمِ والحكمةِ، والقدرةِ وإتقانِ الصُّنع[2]، وقولُه: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ هذه الآياتِ المتلُوَّةَ ونظائرَها المنبّهةَ، على تلك الآياتِ الكونيّة الآمرةِ بالتَّأمُّل فيها، على أن يكون السَّماعُ واعيًا مُفضيًا إلى تأمُّل الظَّواهر، واستنباطِ الدَّلائل الموصِلةِ إلى اليقين[3].

نُكتة الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإيـذانُ ببُعـدِ مَنزلةِ المُشارِ إليه وعُلوِّ رُتبتِه

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرِ العظيم[4]، ففي اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنى البُعدِ ما يفيد بُعْدَ مَنزلةِ المُشارِ إليه وعُلوِّ رُتبتِه[5]، والمعنى المشارُ إليه بلفظِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، يُفيدُ أنَّ ذلك الجعْلَ المذكورَ؛ لدلائلَ واضحاتٍ لقوم يسمعون ما يُتلى عليهم سماعَ تدبُّرٍ وتعقُّلٍ، يدلُّ على سَعةِ رحمةِ اللّه تعالى بعباده، وتَفَضُّلِه عليهم بالنِّعم التي لا تُحصى[6]، وذلك المُشار إليه يَحملُ ملامحَ العظمةِ التي تُنوِّه بها الآيةُ ضمنًا.

دَلالةُ السَّمعِ، وغرضُ تخصيصِه:

تـلـمـيـحٌ إلى فضيلة التَّأمّلِ والادِّكـــارِ في الانتفاعِ بالآيات

قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: سماعَ تأمُّلٍ وادِّكار، ولكنَّه حذف (يبصرون)؛ لدلالةِ ﴿مُبْصِرًا﴾ عليه، ويَزيدُ ذلك وضوحًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/227.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/227.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/162.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/158.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل: 4/162.
(6) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/100.

وحُسنًا، كونُ السِّياق لنفي الشُّركاء، فهو إشارةٌ إلى أنَّها لا تَسمعُ ولا تُبصرُ أصلًا، فكيف بالاعتبار والافتكار؟ فالذين عبدوهم أكملُ حالًا منهم[1]، وتخصيصُ الآياتِ بالذين يَسمَعون، معَ أنَّها منصوبةٌ لِمَصلحةِ الكلِّ؛ لأنَّهمُ المُنتَفِعون بها[2].

نُكتةُ أسلوبِ التَّعريضِ في وصْفِ القومِ بالسَّماعِ:

الإشـارةُ إلى أنَّ الذين لم يَهتَدوا بالآيات بمنزلةِ الصُّمِّ

في قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ وَصْفُ القوم بأنَّهم يسمعون إشارةٌ إلى أنَّ تلك الآياتِ والدَّلائلَ تنهضُ دَلالتُها للعقول بالتَّأمّلِ فيها، وأنَّ تُوجُّهَ التَّفكير إلى دلائلِها غيرُ محتاجٍ إلَّا إلى التَّنبيه عليها ولفْتِ النَّظرِ إليها، فلمَّا كان سَماعُ تذكيرِ اللّه بها هو الأصلُ الأصيلُ في استخراج دلالتِها، وتَفريعِ مدلولاتِها على تفاوُتِ الأذهان في الفطنةِ وترتيبِ الأدلَّة، جعلَ آياتِ دلالتِها حاصلةً للَّذين يسمعون، ويجوزُ أن يكونَ المُرادُ يسمعون تفاصيلَ تلك الدَّلائلِ، في تضاعيفِ سُوَرِ القرآن، وعلى كلا الاحتمالين فالوصفُ بالسَّمع تعريضٌ بأنَّ الّذين لم يَهتدوا بها ولا تَفطَّنوا لدلالتِها بمنزلةِ الصُّمِّ، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ [الزّخرف: 40][3]، فهذا بعضُ السِّرِّ في أن جاءت فاصلةُ الآية: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، بدلًا ممَّا يقتَضيه ظاهرُ النَّظم، وهو أن تكونَ الفاصلةُ هكذا: (لقوْم يُبْصِرُونَ)، وذلك أنَّ كلماتِ اللّه إنَّما يتلقَّاها المتلقُّون عن طريق السَّمع[4].

دَلالةُ ورودِ الصِّفةِ جملةً فعليَّةً ﴿يَسْمَعُونَ﴾:

الانتفاعُ بالآيات يـكـونُ بـالـنَّـظـرِ المُتجدِّدِ الفَيْنةَ بعد الفَيْنةِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: في التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع إلفاتٌ إلى تَكرار النَّظرِ المرَّةَ بعد المرَّةِ في تلك الظَّواهرِ المُتجلِّيةِ من قُدرةِ اللّه سُبحانه، وأنَّها آياتٌ دالَّةٌ على قدرةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/159.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل: 4/162.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/228.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1045.

اللّه، وعلى تفرُّدِه بالوجود، وأنَّه لن يرى هذه الآياتِ، ولن يتعرّفَ على ما فيها من دلائلَ على قدرةِ اللّه، إلّا مَن ألقى سمْعَه إلى كلمات اللّه، ووعَى ما تُرشده إليه مِن آياتِ اللّه المبثوثةِ في هذا الكون الرَّحيب[1].

دَلالةُ جملةِ الاعتراضِ بين الآيتَيْن:

الاستدلالُ على فسادِ الظّنِّ والكُفرانِ، بشواهدِ خلْقِ اللَّيلِ والنَّهارِ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾، جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ جملةً معترِضةً بين جُملةِ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وجملةِ: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، مجيءَ الاستدلالِ على فساد ظنِّهم وخَرْصِهِمْ بشواهد خلْقِ اللَّيل والنَّهار المشاهَدِ، في كلِّ يوم مِنَ العمر مرَّتين، بُكرةً وعشيًّا، وهم في غفلةٍ عن دلالتِه، وهو خلْقِ نظامِ النَّهار واللَّيل[2].

المُتشابهُ اللَّفظيُّ:

آيةُ يونسَ مَسوقةٌ لـلاستدلالِ والامتنانِ، وآيةُ النَّملِ للتَّعجيبِ والتَّوبيخِ

جاء في سورة النَّمل قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النَّمل: 86]، لكوْنِ الإيمان مقصودًا به أنَّه مرجوٌّ منهم، وجيءَ فيه بصيغة المُضارع؛ إذ ليس المقصودُ أنَّ في ذلك آياتٍ للَّذين آمنوا؛ لأنَّ ذلك حاصلٌ بالفحوى والأولويَّةِ، فصار المعنى: إنَّ في ذلك لآياتٍ للمؤمنين ولمن يُرجَى منهمُ الإيمانُ عندَ النَّظر في الأدلَّةِ، ولهذا خُولفَ بين ما هُنا وبين ما في سورة يونسَ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾؛ لأنَّ آية يونسَ مسوقةٌ مساقَ الاستدلال والامتنانِ، فخاطب بها جميعَ النَّاسِ مِن مؤمنٍ وكافرٍ، فجاءت بصيغة الخطابِ، وجُعلت دلالتُها لكلِّ مَن يسمعُ أدلَّةَ القرآن، فمنهم مُهتدٍ وضالٌّ، ولذلك جيء فيها بالفعلِ ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ المُؤذِنُ بالامتثال والإقبالِ على طلب الهُدى، وأمَّا آيةُ النَّمل فمسوقةٌ مساقَ التَّعجيبِ والتَّوبيخ، فجُعلَ ما فيها

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1045.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/226.

آياتٍ لمن شأنُهمُ الإيمانُ، ليفيدَ بمفهومِه أنَّه لا تحصلُ منه دلالةٌ لمن ليس من شأنِهمُ الإنصافُ والاعترافُ، ولذلك أُوثرَ فيه الفعلُ ﴿يُؤْمِنُونَ ۝٨٦﴾[1] [النَّمل: 86].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإبصارُ والرُّؤيةُ والنَّظرُ:

الإبصارُ يتميَّزُ بالوضوحِ، والرُّؤيةُ تتميَّزُ بالعلمِ، والنَّظرُ بالتَّأمّلِ

النَّظرُ عِبارةٌ عن تقليب العينِ نحوَ المَرئيِّ التماسًا لرؤيتِه، وأصلُ (نَظَرَ) في اللُّغة: تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعاينتُه، فهو طلبُ ظهورِ الشَّيء، ويكونُ النَّاظرُ الطَّالبَ لظهور الشَّيءِ بإدراكِه مِن جهة حاسَّةِ بصره، أو غيرِها مِن حواسِّه، والنَّظرُ بالقلب مِن جهة التَّفكُّر، والنَّظرُ أيضًا هو الفكرُ والتَّأمُّلُ لأحوال الأشياء[2]، والرُّؤيةُ هي إدراكُ المَرئيِّ، ولذلك قد ينظرُ ولا يراه ولمَّا كانتِ الرُّؤيةُ مِن توابع النَّظرِ ولوازمِه غالبًا، أُجْرِيَ لفظُ النَّظرِ على الرُّؤية على سبيل إطلاقِ اسمِ السَّبب على المسبَّبِ[3]، كما ورد في حكايةٍ عن طلبِ موسى ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 143]؛ فكان الرّدُّ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143]، وأيضًا فإنَّه قد يطلُبُ جماعةٌ الهلالَ فيراه جماعةٌ منهم ولا يستطيع الآخرون رؤيتَه مع أنَّهم جميعًا ناظرون[4]؛ فالفرقُ بينهما أنَّ الرُّؤية هي: إدراكُ المرئيِّ، والنَّظر: الإقبالُ بالبصر نحو المَرئيِّ، أمَّا البصرُ فهو إدراكُ العين، ويُطلقُ على القوَّة الباصرة، التي مِن شأنِها إدراكُ أشباحِ الصُّوَر[5]، وأصلُ (الإبصار) في اللُّغة وضوحُ الشّيء، والعينُ هي أداة الإبصار، قال تعالى ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلقُ البصرُ ليدلَّ على العلمِ القويِّ المُضاهي لإدراك الرُّؤيةِ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/44.
(2) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/457.
(4) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 247، والتَّهانويُّ، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/938.

فيُقال: بَصُرَ بالشَّيء: عَلِمَهُ عن عَيانٍ، فهو بَصيرٌ به[1]، قال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 5]، وحينَها يكونُ الفرقُ بين النَّظر والبصر، كالفرق بين النَّظرِ والرُّؤية؛ قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: 198]. وخُلاصةُ القول في الفرقِ بينها: أنَّ الإبصارَ يتميَّزُ بالوضوح، والرُّؤية تتميَّزُ بالعلم، والنَّظرَ يُميِّزه التَّأمُّلُ، وهذا واضحٌ في استعمالات القرآن لهذه الألفاظ.

(1) الحميريّ، شمس العلوم: 1/544.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»